الا ظفره ولكن الامة المرهقة كالامة العثمانية التي اقيم بعضها جواسيس على البعض الاخر وعامتها لا علم ولا ارشاد وقد مزقتها التحزبات الجنسية والدينية لم يكن يرجى لها ان تنهض نهضة فعالة للمطالبة بحقوقها المهضومة ولو لم يتفق لبعض الضباط ان اجتمعوا على هذا الغرض الحميد وسعوا اليه بمهارة نادرة المثال ولولا حبن عبد الحميد وغيرة رجاله من نجاح عزت باشا العابد — لولا ذلك كله لما أُعلن الدستور ولا خلع عبد الحميد

واذا جمع تاريخ عبد الحميد من اول نشأته الى ان تحضره منيته وفصلت اعماله فيه كان عبرة من اكبر عبر الدهر

صادرات الممالك ووارداتها

اوردنا في الجدول التالي قيمة صادرات الممالك الكبيرة ووارداتها في السنتين الماضيتين وهي بملايين الجنيهات الانكليزية

	الصادرات		الواردات	
	١٩٠٧	١٩٠٨	١٩٠٧	١٩٠٨
بريطانيا العظمى	٤٢٦	٣٧٧	٥٥٤	٥١٣
المانيا	٣٣٧	٣٣٢	٤٣٠	٤٠٩
الولايات المتحدة	٣٩٥	٣٦٠	٢٩٦	٢٣٣
فرنسا	٢٢٤	٢١١	٢٤٩	٢٤٤
الهند والمجر	١٠٢	٠٩٧	١٠٤	١٠٥
الهند الانكليزية	١٢٣	٠٩٧	٠٨٦	٠٩١
ايطاليا	٠٧٨	٠٧٤	١٠٥	١٢١
كندا	٠٤٩	٠٥١	٠٧٥	٠٥٨
جنوبي افريقية البريطانية	٠٤٨	٠٤٥	٠٢٧	٠٢٥
سويسرا	٠٤٦	٠٤١	٠٦٧	٠٦٣
اليابان	٠٤٤	٠٣٨	٠٥٠	٠٤٤
اسبانيا	٠٣٧	٠٣٦	٠٣٨	٠٣٨
مصر	٠٢٩	٠٢٣	٠٢٧	٠٢٦

اما البلاد العثمانية فليس لدينا احصاء مدقق عن قيمة صادراتها ووارداتها في السنتين الماضيتين ولكن يظهر من احصاء السنين التي قبلها ان قيمة الصادرات نحو ٢٠ مليون جنيه وقيمة الواردات نحو ٣٠ مليون جنيه

وليس لقيمة الصادر والوارد من البلاد دلالة قاطعة على درجتها من الغنى والفقر والتقدم والتأخر والارتقاء والانحطاط لانها قد تكون مختلفة الاقاليم كثيرة المعامل فيها من كل الحاصلات والمصنوعات تستغني عن غيرها من البلدان فاذا لم تستورد شيئاً فقد لا تصدر شيئاً ايضاً . مثال ذلك الولايات المتحدة الاميركية فان اكثر وارداتها في السنة الماضية كان من الكر والجلود والاصباغ واللبن والحرير والقطن واللستك والصوف والنحاس والحديد والقصدير والشيح والاثمار والفرو والشاي والخزف والورق والزيت والسمك . فاذا اهتمت بزرع قصب الكر مثلاً والبنجر واللبن والتوت وربّت دود الحرير واصطنعت الاصباغ صار فيها ما يكفيها من هذه المواد وقس عليها غيرها مما يمكن الاستغناء عنه فتقل قيمة وارداتها كثيراً ولا يكون ذلك دليلاً على فقرها ولا على غناها . ومن هذا القبيل ان اكثر واردات فرنسا في العام الماضي كان من الصوف والقطن والفحم الحجري والحرير والحبوب وبزور الزيت والجلود واللبن . واقليمها لا يصلح لزرع القطن واللبن وليس فيها مراع واسعة حتى تسترخص تربية الغنم فيها لاجل صوفها وجلودها والفحم الحجري غير كثير فيها ولذلك تضطر ان تجلب هذه المواد من غيرها فكثرة وارداتها ليست دليلاً على غناها

وقس على ذلك انكلترا فان اكثر وارداتها من القطن والصوف والجلود وكلها مما لا غنى لها عنه لصناعتها ومتطوعتيها

وكذلك القطر المصري فان اكثر وارداته من المنسوجات القطنية والحريرية والصوفية والخشب والفحم والمعادن وكلها مما لا غنى له عنه

اما البلاد العثمانية فيمكنها ان تستغني عن اكثر وارداتها كالرز والكر والدقيق واللبن والخشب والجلد والمنسوجات على انواعها لان فيها كل الاقاليم الحارة والمعتدلة والباردة وتجود فيها كل المزروعات وفيها حراج واسعة كثيرة الاشجار ومعادن ثمينة كالحديد والنحاس والرصاص وقوات مائية لانشاء المعامل

واذا استطاعت بلاد ان تستغني عن غيرها بشيء من الاشياء فقد لا يكون من الحكمة ولا من الاقتصاد ان تستغني به بل الحكمة والاقتصاد يقتضيان ان تطلب ما هو اوفر ربحاً لها . فاذا كان القطن يجود في بلاد ولا يجود فيها الرز يكون من الحكمة ان يكتفي اهلها

بزرع القطن فيها ويشتروا رزهم من الخارج ومن الخرق في الرأي ان يبطلوا زرع القطن في بعض ارضهم ويزرعوها رزًّا والقطن اربح لهم. وشأن البلدان في ذلك شأن الناس في اعمالهم فكل رجل يستطيع ان يطحن قمحهُ ويخبزهُ ويعجنهُ ويخبزهُ ويستطيع ان يطبخ طعامهُ يدهِ ويخيط ثوبهُ ويحصف نعلهُ اذا قصد واراد أن يوفر اجرة الخباز والطباخ والخياط والسكاف ولكنهُ اذا كان تاجراً او قاضيًا او طبيبًا او محاميًا فيكون احمق الحمق اذا قضى وقتهُ في خبز خبزهِ وطبخ طعامهِ وخياطة ثيابهِ واهمل عملاً اربح لهُ بما لا يقدَّر

وكما اقتضت الحكمة تقسيم الاعمال بين الناس اقتضت تقسيم الزراعات والصناعات حسب الاقاليم والاستعداد الطبيعي فزرع القطن الذي يصلح لهُ اقليم القطر المصري وتصلح لهُ تربتهُ لا يصلح لهُ اقليم بلاد الانكليز ولا تربتها ولذلك لا يحاول الانكليز زرع القطن في بلادهم

وغزل القطن ونسجهُ اللذان يصلح لهما هواء جانب من بلاد الانكليز لا يصلح لهما هواء القطر المصري. وقد انشأت شركة معملاً لغزل القطن ونسجهِ في القاهرة فكانت النتيجة وبالاً عليها وعلى الذين اشتروا اسهمها فان الكهربائية المتولدة من جفاف الهواء وحركة الآلات كانت تعبث بالقطن وتطيرهُ بين ايدي العمال. وليس من المحال ان يغزل القطن وينسج في القطر المصري كما انهُ ليس من المحال ان يزرع القطن في بلاد الانكليز ونوتمن يبوت من الزجاج ولكن الذي يهمُّ امرهُ هو هل الاربح للانكليز ان يزرعوا القطن في انكلترا ولو في بيوت من الزجاج او الاربح لهم ان يشتروهُ من مصر واميركا. وكذلك هل الاربح لنا ان نسج القطن في القطر المصري او ان نشتريهُ منسوجًا من انكلترا والجواب على ذلك واضح من افلاس الشركة التي اشتغلت بغزل القطن ونسجهِ

ولكن اذا كان لا بدَّ لبلاد من ان تستورد شيئًا من حاجياتها او كمالياتها من الخارج فلا بدَّ لها من دفع ثمنهِ اما نقدًا او بضاعةً ولا بدَّ لها في الحالين من ان تصدر شيئًا من حاصلاتها او مصنوعاتها لتوفي ثمنهِ ما تجلبهُ من الخارج وكذا اذا كانت مديونة لغيرها فانها تضطر ان تصدر شيئًا من حاصلاتها او مصنوعاتها توفي ثمنهِ ربا ما عليها من الدين وفي هاتين الحالتين يظهر لزوم الصادرات. واذا لم تكن البلاد مضطرة ان تدفع ثمن بضاعة ولا ربا دين فثمن الصادر منها ذهبٌ يضاف الى ثروتها ويزيدها قوةً ومنعةً